الثقافة العربية الإسلامية والآخر

أ.د/ عبد الله التطاوى(*)

حين تُوصف الثقافة بالعربية فهى تضم بين جوانحها العلماء والرواد والشوامخ الذين أسهموا فى بنائها، من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم، وحين تُوصف بالإسلامية، فهى تضم العرب وغير العرب ممن شاركوا وأصّلوا للفكر، بصرف النظر عن عروبة المولد، بقدر ما طُرح من معيارية عروبة الثقافة والنشأة التى ضمت الأعلام من أمثال البخارى، والسمرقندى، والفارسى، والجرجانى، وغيرهم.

وهذا الوصف -بهذا الاتساع- تميَّز وميَّز تلك الثقافة بقدر ما تميزت به الدعوة الإسلامية ذاتها من نشر منظومة القيم العليا، التى نهضت على أساسها حياة الأمم والشعوب فى احترام حقوق الإنسان، وتوصيف واجباته بدءًا من القيم العقلية والإنسانية إلى منظومة الروابط الروحية والعقدية التى شكلت بنية المجتمع الجديد فى نمطه الحضارى الراقى.

وليس من قبيل المبالغة أن تكون الثقافة الإسلامية مؤسسة لفكرة الدولة والأمة بديلاً عن فكرة القبيلة والعشيرة، وأن تطرح مبدأ التوحيد بديلاً عن الشرك والوثنية، وأن تجد على أيدى أهلها من القدرة على الانتشار والإقناع ما انتشرت به عبر أرجاء الأرض شرقًا وغربًا، حتى أصبحت الأمة الإسلامية قادرة على البقاء فى ظل حركة ارتقاء العلوم التى تكلمت بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، فى علوم: الطب، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والحكمة، والفلسفة، والأدب، على غرار ما عُرف عن ابن سينا، والرازى، وابن حيان، والخوارزمى، وابن الهيثم، وابن النفيس، والكندى، والفارابى، والجاحظ، وغيرهم كثير.

ويبقى السؤال المحورى قابعًا خلف تلك الأسس والأصول التى ارتضتها الثقافة فى برامج التعامل مع الآخر، بما يمكن رؤيته من عدة زوايا:

(*) نائب رئيس جامعة القاهرة.

أولاها: احترام مبدأ الحرية وقبول الآخـر، بعيدًا عن التعصّب والتشدُّد والانغلاق؛ الأمر الذى تبدَّى فى التزام الأمة بالقيم السـياسيـة التى رسَّخها الرسـول الخاتم ﷺ بين أجلاف الجـاهلية من غلاظ القلوب والعـقول من عُبَّاد الأصنـام، حيث تحمَّل كثيرًا من أذاهم، وصدع بما أُمـر به، وأعرض عن الجاهلين، وكـفاه ربه المستهـزئين منهم، وانطلق يصدع بأمر ربه وينذر عشيرته الأقـربين، ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، بما يدل على كـيفـية تعـامله مع الآخر من منطلقـات محـددة، منها: الجـدل بالحسنى، والـدعوة بالحكمـة والموعظة الحسنـة، والميل إلى السلم والشورى، والـتوكل على الله، والصـفح والعفو فى مواطن القوة والقدرة، عدم الإجـبار أو القهر على الدخول فى الدين بدليل ما رشحه الخـطاب القرآنى من حريـــة المعـتقد ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩] ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]، . فكان المطلب الوحيـد له ﷺ من القوم أن يُخَلُّوا بينه وبين الناس لنشر الدعوة فحسب.

وبدأ الآخر عند رسول الله ﷺ موضع قبـول حتى على علاته وعدوانه وأخطائه، أو على صوابـه ورجحان أدائه، فكان لسـلمان الفارسى من آل الـبيت منزلة على حـد قوله ﷺ، وكان صـهيب الرومى، وكذا بلال الحبـشى، وحتى من الشعـراء من كان على طراز حسان الذى شرف بنسبته إلى الرسول ﷺ، فلم يتم الحجر على الآخر من قبل الدعوة أو رفـضهـا، بدليل تناقضـات ردود ملوك الأرض -وقـتـئـذ- بين رد المقوقس والنجـاشى وقيـصر فى اتجاه، وبين رد كـسرى فارس فى الاتجـاه المضاد. ومع هذا صمـدت الدعوة واجتهد الرسول ﷺ فى الإبلاغ عن ربه حتى ظهر دينه وملأ الدنيا ولو كره الكافرون.

وتتسع صـورة الآخر فى معـاملة الرسول ﷺ للأوس والخزرج ونصـارى نجران، و اتساع الدائرة بينه وبين الكافرين لكى لا يعبد ما يعبدون، وهو ما انتهجه خلفاؤه -رضى الله عنهـم- وضرب بينهم مـثلاً موقف عمر من العـهدة العمرية لأهل إيليـا وما كان من تخـوفه مـن أن يتملك المـسلمون الأرض والقـصـور على حـساب الآخـر فى الأقـاليم

المفتوحة، فأمرهم ألا يمكثوا أكثر من أربعة أشهر حتى لا يمنحهم حق التملك ودوام الإقامة، وكان الولاة أسوة فى المسلك النبوى والعمرى على غرار ما أعطاه عمرو بن العاص من الأمان بمصر للرهبان وأديرتهم ومقدساتهم.

الثانية: تقدير قيمة العقل وفتح أبواب الاجتهاد، وتشجيع التدبُّر والتأمُّل ومراجعة أسرار الكون، فكانت فواصل الآيات القرآنية داعية إلى هذا القرآن الدائم بين التدبر والفكر والعقل، وكذا كانت دعوتها فى ربط الإيمان بالعمل، فكان تكريم أولى الألباب وأولى النهى، كما كان تكريم المؤمنين العلماء العاملين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا..﴾[فصلت:٣٠].

ذلك أن قيمة العقل تحترم فى الإنسان إنسانيته، حيث تتأكد من خلاله مساحة الحرية فى علاقته بالآخر، دون حجر عليه، أو تعطيل لملكاته، أو رفض لقبوله، لاسيما إذا ارتهن الأمر بمطالب الاجتهاد، فكان للمجتهد أجره إذا أخطأ، وكان له أجران إذا أصاب، وكان للاجتهاد فى الإسلام مقومات الاحترام فى التفرقة بينه وبين الشطط، أو النزوع إلى الفوضى، أو افتقاد المسئولية بما يجنى بالتأكيد على حدود حرية الآخر، ولنا أن نتصور – جدلاً– أن ينطلق كل فرد من حرية مطلقة دون مراعاة لحرية الآخرين لنرى الفساد يملأ العالم بلا حدود.

ومع الاجتهاد جاءت دعوة موسعة إلى اختراق كل أبواب العلم، مع دعوة مطلقة إلى عدم تعطيل ملكة العقل، التى سخر الله بسببها الكائنات للإنسان منذ استخلفه فى الأرض لإعمارها ونشر الخير فيها، وتتخللها دعوة دائمة إلى المعرفة زمانًا من المهد إلى اللحد، ومكانًا تطلب فى أقاصى الأرض، ودينًا ترقى بطلب العلم إلى حد الفرائض.

الثالثة: حقوق الآخر أيًا كان معتقده ودينه فى أن يعيش آمنًا، حتى لو كان مشركًا إلى غير ذلك من صور التعامل الحضارى مع أهل الأديان، بما بينها من حوارات حول الأصول والثوابت عبر مصادرها السماوية وقيم العبودية للخالق، وصدق المعتقد بعيدًا

عن صـراعات المذاهب وصـدام الأفكار التى انطلـقت من جراء فـوضى البـشر، وتمتـد حقوق الآخر فى الثـقافة العربية الإسلاميـة على اتساع دوائرها، بدءاً من حق الجوار إلى حقـوق السلام والتعـايش، إلى ما يكملها من أطر التـعامل فى دوائر التسـامح والصفح والمساواة والإخاء، إلى تفاصيل كثيرة التقت حولها الأديان فى دوائر المشترك، بما يضمن للبشر سلامة مجتمع التنمية والرخاء بعيدًا عن الحروب والتصادمية، وبمنأى عن التشرذم والانقسام.

ونظل حقوق الآخر محفوظة فى أن يسلم من كل صور أذى غيره لسانًا أو يدًا، وأن يحتـمى من بوائق السفهـاء، وأن يأمن على حياته ودمـه وعرضه، وأن ينال حقـوقه دون بخس أو عدوان، وأن يؤدى واجبه دون قهر أو امتهان.

الرابعـة: احـترام الروابط الروحـية الجـامـعة بين البـشـر من خلال مـبدأ الوحـدة والتنوع، فقد خلقهم الله من أصل واحد، وأرسل إليـهم أنبياءه ورسالاته وحيًا من باب الابتلاء والاختبار، فكان قانون الفكر العربى الإسلامى متسقًا مع هذا المنطق الرفيع منذ أوجزه الرسول ﷺ فى خطابه الدينى فى حجة الوداع «أيها الناس.. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم..»، وعليـه كان التطبيق العملى المؤكد للدعـوة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]، وبين النص القرآنى والنبوى تناسق وتناغم فى سياق دعوة صريحة إلى احترام المشترك الإنسـانى، وتقدير معايير الاختلاف، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود:١١٨]، ولكنه شاء أن يدفع بعضهم ببعض ليـبلوهم بالخيـر والشر، وهذا هو المحك فى التعـامل الإنسانى مع منظومـة القيم العليا وما دونهـا من قيم أخرى مغايرة من تلك الزوايا الأربع، وما يكملهـا من تفاصيل، جاء مشروع الثقافـة العربية الإسلامية فى التقائها مع الآخـر تفاعلاً وحوارًا دون افتراق، منذ قدرت مدارس الاختـلاف بين أهل النص وأهل الرأى، وعلماء المتن وعلماء السند

والرجال، إلى مدارس غيرهم من اللغويين والبلاغيين والنقاد والمؤرخين، إلى قضايا القدم والحداثة، إلى تقبل صراعات الفكر فى صورها الجدلية الكلامية، إلى ما صاغته تلك الثقافة من رحابة وموسوعية لم تعترف بحدود الأجناس، ولا تباين المذاهب والأديان، إلى ما مثله أقطابها الكبار من تكامل معرفى وتجلى فى إنتاج العلوم، فكان ابن سينا -مثلاً- طبيبًا ومفكرًا وفيلسوفًا وأديبًا ومؤرخًا وشاعرًا فى آن واحد، وكذلك كانت موسوعية الجاحظ بين أدباء عصره الأمر الذى يشف عن رحابة تلك الثقافة فى الإلمام من كل العلوم بأطراف، معمقة بقدر ما شفَّت عنه من أصالة وعراقة وعمق فى قبول الآخر جدلاً وحوارًا وتثاقفًا وأخذًا وعطاءًا.

ويبدو تجانس دار الحكمة بجناحيها بين علوم الأوائل وقلم الترجمة شاهدًا أمينًا على تلك الازدواجية الثقافية التى قامت على تحدى فكرة الخطوط الفاصلة بين ثقافات الشعوب إلى اتخاذها بوتقة وذوبًا ثقافيا رائعًا، شارك فيه النصرانى والمجوسي واليهودى دون ريبة أو توجس، بقدر ما شارك فيه غير العرب من كل أنحاء الأرض دون قهر أو جبر بقدر ما أتيح لهم جميعًا من حرية العطاء وكفالة المشاركة.

أما ظهور بعض أصوات سفهاء القوم من حين إلى آخر، فى محاولة النيل من الأديان، فهى أشبه بالحركات الاستعمارية التى وصفها الراحل العظيم د. جمال حمدان بالجملة الاعتراضية فى تاريخ الشعوب، ليظل الحق ماثلا لأهله، وهو ذاته منطق الأديان التى تبقى ولو كره الكافرون، ويذهب منطق السفهاء هباء منثورًا كما ذهبت حركة القرامطة والزنج وغيرها من تجاوزات جاءت على حساب الأديان، فانتهت وزالت وبقيت الأديان، وبقيت حواراتها خالدة باعتبار الصلاحية والقداسة وضمان خير الإنسان فى علاقته الإيجابية بأخيه الإنسان.

ثم يبقى فى مفهوم الآخر مع ثقافتنا عدة أوراق متداخلة إذا وضعنا فى الاعتبار تلك المشاركات العلمية الرائعة التى أفاض بها غير العرب وغير المسلمين، فدخلوا فى نسيج

الأمة تاريخًا وفكرًا وإبداعًا، ليبقى الآخر خارج سياق النسق الثقافى العربى الإسلامى بما يحتاج إلى تصحيح المفاهيم وتوصيل الرسالة على عدة أسس، منها:

١- تعزيز فكرة المشترك الثقافى والإنسانى من منظور الوحدة والتنوع، دون اجتراء أو تجاوزات فى المساس بالهوية أو تهميش الكيانات القومية، ودون استعلاء على الآخر ذاته.

٢- تقدير أسس الحوار ومنطلقاته وأصوله من منظور المرونة والتفاعل ودرجات القبول والأخذ والعطاء دون توقف أو انحسار.

٣- تحديد مفاهيم التطوير والتحديث وبرامج الإصلاح بحيثياتها وارتباطاتها بصدورها من الداخل، دون فروض أو تبعية من قبل الآخر بما يضمن صحة التعايش الإنسانى بين شعوب الأرض دون تغليب منطق القوة أو الحروب على منطق السلام والمشترك والحوار فى صورة الإنسانية الرفيعة.

❊ ❊ ❊